**المحور الثاني**

**الحياة العلمية و الثقافية في السودان الغربي:**

**تمهيد:**

إن الإطار الجغرافي المعني هنا بالدراسة هو المنطقة الممتدة من الحواف الجنوبية للصحراء إلى غاية منطقة السفانا جنوبا، و من المحيط الأطلسي إلى غاية بحيرة تشاد شرقا، أما زمنيا فنخص بالدراسة الفترة الممتدة من القرن 11 الى غاية القرن 16م، فلقد عرفت هذه المنطقة بعض المراكز التاريخية و الحضارية التي كان لها تاثير كبير في تاريخ المنطقة، وذلك بسبب احتضانها لمراكز سياسية و عواصم ممالك عريقة و إمبراطوريات قوية، بالاضافة إلى تحولها إلى مراكز إشعاع فكري و ثقافي.

عرفت هذه المنطقة الإسلام منذ القرن الحادي عشر للميلاد/5هجري، عن طريق التجار الاباضيون أولا، حيث استقر التجار الاباضيون و حتى صفريو سجلماسة في أهم المراكز التجارية في بلاد السودان من اجل جلب ذهب السودان المجلوب من الأدغال الإفريقية، فاحتكوا بكبار تجار إفريقيا الغربية و ملوكها، و تمكنوا من فرض أنفسهم في تلك المجتمعات بفضل حسن سيرتهم و صدقهم و أمانتهم و حسن تدبيرهم حتى أن البكري خلال القرن العاشر يذكر أن ملك مالي الوثني كان يستعين بهم في تدبير شؤون دولته، فعين منهم الكتاب و الأمناء و الوزراء، كما خصص لهم مدينة بأكملها للجالية الإسلامية بعاصمته تضم اثنتي عشر مسجدا فيه الراتبون و القراء و الأئمة والمؤذنون و حملة العلم.

و تمكن هؤلاء التجار إذا من إقامة جاليات إسلامية عملت على نشر الإسلام في تلك الأراضي الإفريقية، فتحولت تلك المراكز التجارية مع مرور الوقت إلى حواضر علمية بسبب تجمع العلماء والفقهاء، ثم بناء المساجد التي تحولت إلى مراكز تعليمية و جامعات إسلامية و مراكز إشعاع للعلم والثقافة**.**

**أولا: أهم الحواضر التاريخية و العلمية في غرب إفريقيا:**

**1. الحواضر لغة:**

ان كلمة حواضر لغة هو اسم جمع مفرده حاضرة، و تعني القوم الحضور، فنقول حضَر البدويُّ: أقام واستقرّ فلم يعد يترحّل. و بهذا فهي تعني مكان تجمع السكان الحضر أي عكس البادية، و هي بالمعنى الحديث تعني المدينة.

فالحواضر التاريخية الافريقية هي تلك المدن الو التجمعات السكانية التي احتضنت في تاريخها مراكز سياسية و تجارية و ثقافية، مما جعلها مراكز اشعاع للعلم و الثقافة في غرب افريقيا.

**2. أهم الحواضر العلمية:**

**أ. تنبكتو:**

تعد مدينة تنبكتو حديثة النشأة مقارنة بغيرها من المراكز الأخرى، إذ يعود بناؤها إلى أواخر القرن الخامس للهجرة/ 11م، على يد قبائل التوارق المعروفين باسم (مقشرن)**[[1]](#footnote-2)**، الذين بنوها في مكان يبعد بتسعة أميال عن نهر النيجر. ولقد اصبحت المدينة بفضل موقعها المميز تستقطب التجار والعلماء وأصحاب الأموال من مصر، و فزان، وغدامس، وتوات، ودرعة، وفاس، وغيرها**([[2]](#footnote-3))**. فبعد أن كانت في البداية مجرد مخيم للشتاء قرب النيجر، تطورت بعد ذلك كمركز تجاري، وعوضت ولاتة التي كانت تلعب هذا الدور قبلها، حيث كان الفضل للملك منسا موسى في تحويلها من مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة / 11 م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة 14/ معندما قرر منسا موسى الى اعادة تهيئتها فأصبحت بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتنبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك، كما عرفت توافد السودانيين من كل جنس، فتكونت جالية من التجار الذين طلبوا الحماية من زعماء مالي، فأصبحت على يد منسا موسى مدينة متطورة، و عين عليها دار الإمارة، بعد أن عمرها وجعل فيها الدكاكين والصناعات، وجلب إليها البنائين، حيث يعد المؤسس الحقيقي للمدينة و ذلك عام 610هـ/ 1213م.

و لما ضمها الإسقيون الى مملكة سنغاي، اكتسبت مكانة تجارية اكبر و ذلك بفضل موقعها الممتاز في منحنى نهر النيجر، فأصبحت أقرب محطة سودانية للقوافل القادمة من المغرب، كما أن موقعها على النيجر جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان، وخاصة تجارة الذهب والملح.

كما احتضنت مكانة علمية و ثقافية بفضل السمعة التي نالتها جامعاتها مثل جامع جنجربير و جامع سيدي يحي التادلسي، و التي كانت تستقطب طلبة العلم و العلماء من كل حدب و صوب، و عرفت نهضة علمية قادتها بعض البيوتات العلمية مثل عائلة اقيت وعائلة بغيغ و عائلة اندغمحمد، فأنجبت لنا عدة مؤلفات و مؤلفين أشهرهم احمد بابا التنبكتي و عبد الرحمان السعدي، و محمود كعتي. حتى اصبحت اكثر شهرة من العاصمة جاو، و هو ما جعل المسكتشفون الاوربيون يتنافسون حول اكتشاف هذه المدينة الى ان اكتشفها روني كايي الفرنسي سنة 1828م و اطلق عليها اسم تنبكتو العجيبة.

**ب. جني:**

يطلق عليها التجار الأفارقة اسم كناوة، بينما يسميها أهلها بجني، وهي أسم مدينة ومملكة في نفس الوقت، تبعد عن ولاته بخمسمائة ميل في الصحراء، وتمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلا، ولها جزء على المحيط حيث يصب نهر النيجر(**[[3]](#footnote-4)**). لقد كانت مدينة جني في البداية تابعة لمملكة مالي ثم ضمتها مملكة سنغاي الى حاضرتها في عهد الملك سني علي، بعد حرب مع جيش مالي.

ودخل أهل جني الإسلام خلال نهاية القرن السادس للهجرة/ 12م، وكان اسم السلطان الذي أسلم وأسلم أهل جني بإسلامه، هو (كنبر) الذي يحكي بأنه عندما عزم على دخول الإسلام أمر بجمع أربعة آلاف ومائتي عالم، وأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعو الله تعالي بثلاث دعوات لتلك المدينة وهي:

1. « كل من هرب إليها و وجد في وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة ويسرا.

2. أن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها.

3. أن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملكوا فيها فيبيعوها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها».

وبالفعل فقد أصبحت منذ القرن السابع للهجرة/ 13م، مركزا تجاريا مهما بفضل موقعها في ملتقي الطرق، بالإضافة إلى إحاطة المياه بها مما يحميها من غارات المعتدي، وبدأ أهلها يحققون أرباحا هائلة من تجارة القماش والنحاس والسلاح. ففيها كان يلتقي أرباب الملح القادمون من تاغزة، وأرباب الذهب من أودغست، فاستقطبت إليها التجار من كل الآفاق، حيث كانت أسواقها تدوم طول أيام الأسبوع، وكانت تستعمل فيها حتي القوارب لنقل الملح وسلع أخرى من تنبكتو إلى جني، وبالتالي أصبحت جني حلقة وصل بين تجارة الذهب وتجارة الملح.

**ج. غاو:**

تناولت المصادر العربية اسم هذه المدينة باختلاف كبير، فنجدها كوكو عند الإدريسي وحسن الوزان، ويذكرها المهلبي بـكاوكو. وعلى كل حال فإن مدينة جاو تعد من أشهر مدن السودان، فهي تقع على ضفة نهر النيجر من جهة الشرق ، وازدادت شهرة عندما أصبحت عاصمة مملكة سنغاي. فهي كانت تمثل بالنسبة لشعب سنغاي، ما كانت تمثله تنبكتو لغيرها من دول السودان الغربي، من نواحي الثقافة والتجارة والإدارة الحكومية. وقد اكتسبت تلك الأهمية بوجودها في أحد الطرق التي تربط مصر بغانة، وهو ما جعلها تشارك في ذلك النشاط التجاري الذي جلب لها الرفاهية. لكن ذلك الطريق الذي أهمل خلال القرن الرابع للهجرة / 10م، جعل جاو توجه تجارتها إلى الشمال من خلال تادمكة وتوات باتجاه المغرب، ومن خلال الهقار وغات باتجاه مصر.

**د. ولاتة:**

يصفها بن بطوطة، الذي يذكرها بايوالاتن، بأنها أول عمالة السودان، وأنها تبعد عن سجلماسة بمسيرة شهرين (**[[4]](#footnote-5)**)، ولعل هذا الموقع هو الذي جعلها مركزا تجاريا استقطب اهتمام التجار، ذلك أن تجار غانة الملقبين بـ(الونغارة)، هم من أسسها في مكان يدعي (بيرو)، وذلك عام 621هـ/ 1224م، مباشرة بعد نهب مدينة كومبي صالح.

وقد تم اختيار هذا المكان لأغراض أمنية، فوجودها على الحدود بين السفاناوالصحراء الكبرى، وعلى بعد شهرين من سجلماسة، جعلها المدينة السودانية الأقرب من بلاد المغرب، كما جعلها هذا الموقع بمثابة مفترق طرق كثيرا ما يعبره التجار، وأهل السودان الذاهبون إلى الحج.

فولاته إذن تعد المحطة النهائية لعابري الصحراء، حيث عوضت الدور الذي كانت تلعبه أودغست المندثرة، والمسيطر على موقعها من طرف عرب المعقل الذين أصبحوا يشكلون خطرا على القوافل ، وعندما زار ا بن بطوطة مدينة ولاته، وأقام بها خمسين يوما، كان زعيمها (فربا حسين) تابعا لسلطان مالي، والمدينة تابعة لإمبراطورية مالي، وكانت تحتوي على فنادق، ويتكفل بضيافة التجار المشرف الذي يدعى (منشا نجو).

وبقيت على هذا الوضع إلى غاية الاستيلاء عليها من طرف الطوارق عام 838هـ/ 1433م، الذين فضلوا تطوير تنبكتو على حسابها ، حتى إذا زارها حسن الوزان في بداية القرن العاشر للهجرة/ 16م، كانت مملكة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان، وليس لها من الأماكن المسكونة إلا ثلاثة قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل.

**ه. تاكدا:**

اشتهرت تاكدا بإنتاج النحاس، الذي يستخرج من مناجمها فيحملون إلى بلاد السودان، بعدما يسبك على شكل قضبان في طول شبر ونصف ، ولعل هذا المعدن هو الذي منح تاكدا أهمية تجارية، بالإضافة إلى موقعها في الطريق بين توات وغانة. فهي تبعد عن توات بسبعين يوما، فكانت القوافل تسير منها باتجاه بلاد بورنو حيث تجلب الجواري والعبيد والثياب وتصدرها إلى المغرب **([[5]](#footnote-6))**. كما كان أهل تاكدا يسافرون سنويا إلى مصر، ويجلبون منها الثياب الحسنة وغيرها، وهو ما انعكس بالرفاهية وسعة الحال على أهلها.

**ثانيا .مظاهر الحياة الثقافية و العلمية في الحواضر الإفريقية:**

**1 ــ مؤسسات التعليم:**

بعد انتشار الإسلام في غرب افريقيا و قيام دول سودانية اسلامية مثل غانة و مالي وسنغاي، تحولت تلك المراكز التجارية و السياسية إلى مراكز علمية بعدما أُقيمت بها مساجد تحولت الة جامعات و مراكز إشعاع علمي، حيث استقطبت العلماء و الطلبة من كل بلاد السودان، حيث ذكر السعدي أنه بعدما أسلم سلطان جني الذي يدعى كنبر حضر إسلامه 4200 عالم كانوا موجودين في مدينة جني، و هو رقم كبير يدل على أهمية المدينة من الناحية العلمية. و لو أن المقصود بالعالم عند السعدي هو معلم الصبيان، أي حتى معلم في الكتاتيب كان يطلق عليه اسم عالم.

إن هذا العدد من المعلمين و القراء المنتشرين في أرياف و مدن مملكة جني يدل أيضا على انتشار التعليم و الاهتمام به خاصة في عهد الاسقيين و هو الفترة التي كان يقصدها السعدي بالدراسة. فالتعليم كان موجودا حتى في الفترات السابقة أي فترة حكم سوندياتا كيتا**،** خلال القرن13م، أين كان يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف.

لكن مع ظهور الممالك السودانية الإسلامية، و ظهور ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهيأ لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية (**[[6]](#footnote-7)**).

وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم الملوك القرآن وبعض شرائع الإسلام واللغة العربية ، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك، ثم تطور التعليم ليشمل علوم اخرى، ومستويات أعلى.

و كانت مؤسسات التعليم في حواضر غرب إفريقيا تمتاز بظاهرة عامة و هي ارتباطها الشديد بالدين، حيث كانت في البداية المدارس مرتبطة بالمساجد و ملحقة بها، فالي جانب كل مسجد كان هناك غرفة او غرفتان لتعليم الأولاد، و هناك أمكنة أخرى ليبيت فيها الطلاب القادمين من البلاد البعيدة، و هناك مساجد خصصت كلها لتلقي العلم كانت تعقد فيها حلقات لمختلف العلوم الشرعية.

**2 ــ مراحل التعليم:**

مع ظهور الحواضر الكبرى في عهد إمبراطورية مالي و سنغاي ظهرت معه المؤسسات التعليمية الكبرى ذات المستوى العالي مثل جامع جنجربير و سيدي يحي في تنبكتو و جامع سنكاري في مدينة جني، حيث كانت تمر بمراحل تعليمية تبدأ من الإبتدائية إلى غاية المرحلة العليا التي يتخرج منها الطالب عالما.

**أ. مرحلة التعليم الابتدائي (الكتاتيب):**

قبل الحديث عن هذه المرحلة، تجب الإشارة إلى أنَّ عملية التعليم تختلف جزئياً بين الأقطار الإسلامية، وقد أوضح العلامة ابن خلدون ذلك في مقدمته عندما تحدث عن تعليم الأولاد واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية، حيث قال: “إنَّ تعليم الأولاد للقرآن الكريم شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ورجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ في الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات...واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للأولاد باختلافهم، باعتبار ما ينشأ من ذلك التعليم من الملكات.

وتعد المرحلة الابتدائية أساسية للطلاب، حيث تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهذيبا دينيا سليما يتزودون فيها بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها،كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية،  وعادة ما تضم هذه المرحلة الطلاب صغار السن، بداية من سن الخامسة حتى مرحلة الصبا،  وكانت مدة بقاء الطالب فيها تراوح بين الخمسة والستة أعوام في المتوسط؛ يحفظ فيها أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن فن الكتابة والخط، ويلمّ بمبادئ اللغة العربية.. وكل ذلك يتم عن طريق الكتابة على الألواح الخشبية. إنَّ هذه المرحلة من التعليم تقوم بها الكتاتيب، وقد اختلفت مسمياتها في إفريقيا الغربية باختلاف قبائلها؛ فقبيلة الولوف تطلق عليها اسم دارا ، وقبائل بلاد شنقيط (موريتانيا) يعرفونها بـ المحظرة، أما قبائل التكرور فيدعونها ديا لجانتي، في حين تسمي قبائل أخرى معلم الكتاتيب  معالام، وهو تحريف للفظ معلم.

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلا يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، ، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر. كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة.

وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري.

**ب. مرحلة التعليم الثانوي:**

فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي،كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة. بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدَرَّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري. كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق.

وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة. بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصا وعمقا في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجا صالحا للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن.

**ج. مرحلة التعليم الجامعي(او العالي):**

تختلف هذه المرحلة كثيراً عن مرحلة التعليم السابقة لها، فهي تعادل ما يُطلق عليه في يومنا هذا المرحلة الجامعية، و الدراسة في هذه المرحلة تتميز بالتعمق في القضايا، والخوض في المسائل التفصيلية والشروح الدقيقة التي ضمتها بعض أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت. ومن أشهر المساجد التي اهتمت بالمرحلة العالية: مسجد سنكري. وتحدثنا بعض المصادر التاريخية أنَّ الأسكيا الحاج محمد كان يخصص أوقافاً لتنفق على الطلاب المتفرغين للعلم والدراسة.

و كانت تتم هذه المرحلة في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج.

وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها.(**[[7]](#footnote-8)**)أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها.

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو وجدها تعج بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها.

كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى.

عندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي. وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة.

كما جذبت جامعة تمبكتو بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724هـ /1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي 804هـ /1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة.

وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تظم طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا.

وكان التعليم في جامعة سنكري يشمل المناهج الدراسية التي كانت تتضمن: التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، والعلوم العقلية، وغيرها من المعارف التي كانت تشكل في الوقت ذاته الدعائم الأساسية للعلوم الإسلامية. وقد اشتهرت جامعة تنبكت بتدريس المذهب المالكي، الذي كان يقوم بتعليمه علماء ضالعون في مادته، سواء من الإفريقيين أو الزائرين من أساتذة القاهرة وفاس، الذين كانوا يأتون لإلقاء الدروس على الطلاب الذين يفدون على هذه الجامعة من كل مكان من مناطق إفريقيا الغربية المجاورة(**[[8]](#footnote-9)**).

**د. التَّعليم المهني (الحرفي):**

رغم قلة انتشار هذا النوع من التعليم واقتصاره على مهمة الخياطة وبعض المهن الحرفية الأخرى؛ كصناعة السيوف والحراب؛ فإنَّ التدريس في هذا النوع كان يتولاه معلمون متخصصون عُرفوا بــــالشيوخ الرؤساء، حيث كان التدريس والعمل يتم في بيوت وفي مقر عمل شيوخ المهنة. وقد ذكر المؤرخ محمود كعت أنه يوجد في مدينة تنبكتو وحدها 26 بيتاً من بيوت الخياطين، ولكل بيت من تلك البيوت شيخ معلم، وقد بلغ تلاميذهم ما بين 75 إلى 100 تلميذ.

1. **ــ الإجازات العلمية و الشهادات:**

إن شهادة التخرج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج. ووجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة، هي: شهادة السماع، وتعني أن الطالب تتبّع أقوال العالم وحفظها. وشهادة العرض، أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره النصوص ومعرفته شروحها. ثم الإجازة الكاملة، وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون.

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ويكثر أساتذته فيها جميعاً، لكن الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، أي عندما يتأكد المدرس أن الطالب متمكن من مادة أو من إتقانها إتقاناً تاماً، ويلاحظ مواظبته على تلك المادة واهتمامه بها، وأيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، وقد يكون على المجاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها.

ولا تُعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد، فلم تكن شهادة جماعية، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم على إجازة في فن مستقل متمايز، ثم يبقى طالباً عادياً في فن أو فنون أخرى، ويحضر بانتظام حلقات أستاذه فيها.

وتتضمن الإجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس بأنه حضر عليه مواد متعددة لكنه برع في مادة خاصة، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يحوز له إن كانت للمدرس كتب من تأليفه، وما يحوز له من غيره إن كان الكتاب من وضع شخص آخر. ومما يدل على مدى تحري الأساتذة وحرصهم على الإنصاف ما جاء في إجازة أحمد بابا عن أستاذه محمد بن محمود بغيغ، وما تضمنته إجازته على يد أحمد المقري في مصنفات الأحاديث النبوية الستة بعد أن رواها كلها بالسند السوداني المتصل بروايات واضعي تلك المصنفات، وقد كتبت تلك الإجازة بمراكش في 15 ربيع الآخر عام 1010 للهجري/ 13 أكتوبر 1601م.

ولقد تشابهت الإجازات بين إفريقيا الغربية والمغرب بفضل الاتصال بين علمائهما، وبصفة خاصة بعد عودة علماء السودان المهجرين إلى وطنهم، ويمكن من مراجعة تراجم علماء تنبكتو وفقهاء المالكية السودانيين أن نميز بين نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين: **إجازات خاصة** تهم فناً واحدا أو عدة فنون متحدة الموضوع، **وإجازات عامة** تشمل فنوناً وعلوماً متباينة، ومن أمثلة النوع الأول: الإجازات القرآنية و الحديثية، وكان يراعى فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة التامة بالقراءات السبع واختلاف روايات حديث. أما الإجازات العامة فتقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه والقدرة على تبليغه للآخرين، ولم يكن ذلك متأتياً إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانباً كبيراً من حياة الطالب(**[[9]](#footnote-10)**).

**ثالثا: مظاهر الحياة الثقافية في غرب إفريقيا:**

**1 ــ حركة التأليف و المؤلفين:**

شهدت الحواضر الثقافية في غرب إفريقيا حركة تأليف واسعة كان وراءها علماء من غرب إفريقيا تكوَّن معظمهم في جامعات السودان الغربي كتنبكتو و جني و غاو، و لقد شملت حركة التأليف ميادين مختلفة نصنفها كما ياتي:

1. **التاريخ:**

الشيخ القاضي(محمد بن محمود كعت)،الذي ولد عام 868هـ/1468م بمدينة تمبكتو**([[10]](#footnote-11))**، وعاصر السلطان أسقيا الحاج محمد التوري، الذي عاش بين 898هـ و925هـ، وألف كتابه المشهور في التاريخ والمعروف بـ « تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار»، والذي بدأ بتأليفه سنة 925هـ/1519م. وكان هذا الكتاب من أهم المصادر الخاصة بتاريخ السودان الغربي في عهد الإسقيين، خاصة فيما يتعلق بتمبكتو وأوضاعها، والغزو المغربي لسنغاي، وتخريب تمبكتو، وتدهور حالتها. وقد توفي محمود كعت عام 1001هـ/1593م. وأكمل أحفاده من بعده، أحداث السنوات الست المسجلة بعد ذلك بالكتاب، وتميز كتابه بلغة سلسة، ومعلومات غزيرة.

**\* احمد بابا التنبكتي** من عائلة اقيت الشهيرة في تنبكتو، كتب أكثر من 400 مؤلف، أشهرها نيل الابتهاج بتطريز الديباج و هو موسوعة تراجم لأكثر من مائة عالم في الفقه المالكي، وكذا كتاب «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» وهو مختصر كتابه الأول حيث هذبه وأضاف له حواشي و أسماء أخرى كان قد أغفلها في تطريز الديباج، و لديه كتاب معراج الصعود في حكم مجلوب السود.

ومن المؤرخين الذين أنجبتهم بلاد السودان، عبد الرحمان بن عبد الله السعدي، الذي ولد بمدينة تمبكتو عام 1004هـ/1596م، أي بعد الغزو المغربي لمملكة سنغاي الذي حدث عام 999هـ/ 1591م، وعاش في ظل الحكم السعدي لتمبكتو، حيث عينه الباشا محمد بن عثمان حاكم تمبكتو سنة 1646م ناظرا لخارجيته، فسمح له ذلك المنصب بالتنقل في أنحاء المملكة، فألف كتابه المشهور ( تاريخ السودان)، الذي أتمه عام 1063هـ/1655م فكان هذا الكتاب أفضل متمم لتاريخ الفتاش عن تاريخ السودان.

كما عرفت مملكة كانم بورنو حركة تاليف مهمة جدا في التاريخ لعل أهمها مؤلفات احمد بن فرتيوا البرنوي و هو مؤرخ البلاط في إمبراطورية كانم الذي ألف كتاب )تاريخ مي إدريس ألوما وغزواته ) وقد كتب هذا التاريخ على حدّ قوله تبعاً لما يراه من تأليف الشيخ الفقيه مسفرمه عمر بن عثمان في عصر سلطانه الملك العادل. وقد ترجمه المؤرخ الألماني بالمر(Palmer) إلى الإنجليزية.

ومنها كتاب) ديوان سلاطين كانم) لمسفرمه عمر بن عثمان السابق الذكر، يضمّ هذا الديوان أهمّ الوثائق، وأسماء السلاطين في إمبراطورية كانم برنو الإسلامية القديمة، ومنها غزوات كانم، وكتاب« أخبار أصل فلات برنوي » وغيرها).

ومن أهمّ الوثائق التاريخية في البرنو الإسلامية « المحارم »، وهي المراسيم التي كان يصدرها الحكام في حق العلماء، وقد استفاد المؤرخون منها، الأمر الذي جعل المؤرخ الألماني بالمر يترجمها إلى الإنجليزية في كتابه )صحارى برنو (The Borno Sahara)، كما ترجم عدداً غير يسير من الرسائل العربية البرنوية والمعاهدات، وبعض القصائد في كتابه الثاني تحت عنوان« مذكرات سودانية « Sudanese Memoirs الذي يقع في ثلاثة أجزاء.

فالقيمة التاريخية في هذه الآثار العربية البرنوية لا شكّ فيها، وإن تضاؤل هذه الآثار العربية

النثرية في الإيفاء بشروط تدوين التاريخ على حدّ مفهومها المعاصر؛ لا يُخرج أولئك العلماء من كونهم مؤرّخين؛ لأن الاستفادة مما خلفوا من المعلومات.

1. **في الأدب:**

**تعتبر اللغة بالنسبة لأي شعب، بمثابة الوعاء الذي يحمل ثقافته وإنتاجه الأدبي والفكري، لكن اللغة العربية تمتاز بالإضافة إلى كل ذلك، بأنها أداة للصناعة الأدبية، والبلاغة التي ارتبطت بحضارة العرب قبل الإسلام، ثم جاء القرآن ليجعل منها معجزة جمعت جمال الكلمة، وبلاغة القول، وحملت رسالة إنسانية عظيمة، فكان الأدب العربي أول ما نقلته هذه اللغة أينما حلت بعد القرآن. فلم يكن للأفارقة في السودان الغربي قبل مجيء الإسلام من الآداب، سوى حكايات يتناقلها الخلف عن السلف شفهيا، وتتمثل أغلبها في ذكر بطولات الأجداد، وأصول القبائل، والملوك وأنسابهم، بالإضافة إلى صراع الإنسان مع الطبيعة([[11]](#footnote-12)).**

**فكان الأدب السوداني إذن، أدبا غير مكتوب، ومعظم التراث الأدبي تم الحفاظ عليه عن طريق الروايات الشفهية، إلى غاية مجيء الإسلام، واحتكاك السودانيين بالتجار المغاربة والفقهاء، وخاصة في المدن الهامة مثل تمبكتو، جاو، جني، ولاتة، وغيرها، حيث كان يلتقي العلماء والتجار والقضاة، فتمكن أهل السودان من تشكيل نخبة حملت آداب اللغة العربية ([[12]](#footnote-13)). وقد سبق وأن ذكرنا البلاغة التي ميزت الأديب الكانمي، أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب الأسود، وشعره الذي قاله عند ملاقاة أبي يوسف المنصور الموحدي.**

إنالمتصفح لتاريخ اللغة العربية وآدابها في هذه البلد؛ يعرف أن بعض العلماء والرجال على مرّ عصورها قد أسهموا في ترقية العربية وتطويرها في إفريقيا، وتركوا أنواعاً كثيرة من الكتابة، مثل الرسائل الديوانية بين العلماء، والوثائق الرسمية بين رجال الحكومة، وبعض الوثائق التاريخية، ومن الممكن تقسيم هذا الفن الأدبي )النثر) الذي أنتجه علماء هذه الديار إلى فنيّ وعلميّ، فالأول استعملوه في رسائلهم، والثاني في تأليفهم.

أما النثر الفني، فخير مثال على ذلك الرسائل المتبادلة بين أهل الفودي وبين فارس الكانم الشيخ محمد الأمين الكانمي، ونورد هنا نصّاً من رسالته إلى الزعيم الفلاني الشيخ عثمان بن فودي، قال فيها: «من المتعفّر بتراب الذنوب، والمتدثّر بجلباب العيوب، العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم، السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد، فالباعث لرسم هذا المزبور، أنه لمّا ساقتني المقادير لهذا الإقليم، وجدتُ نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألتُ عن السبب، فقيل: بغي وقيل: سنّة، وتحيّرنا في الأمر، فكتبتُ لإخوانكم المجاورين لنا وثيقةً، طلبتُ منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجدّد، وعدّوا فيه أسماء كتب لنا اطلاع على بعضها، لكن لم نفهم منها ما فهموه.

ومن أمثلة الرسائل الديوانية كذلك؛ رسالة ملك برنو إلى السلطان الظاهر البرقوق في القاهرة سنة 894 هجرية تقريباً، والتي ورد فيها ما يأتي :« بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً: الحمد لله الذي جعل الخط تراسلً بين الأباعد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحباب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات، ومن المتوكّل على الله تعالى، الملك الأجلّ المستنصر بالله، المنصور في كلّ حين وأوان، ودهر وزمان، الملك العادل، الزاهد التّقي النّقي، الأبجد والأمجد الغشمشم، فخر الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرّم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا ملكه؛ إلى ملك المصر الجليل، أرض الله المباركة، أم الدنيا، سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الغمام.. زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم، وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين. وبعد ذلك؛ فإنّا قد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو عمّي، واسمه إدريس بن محمد، من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعراب الذين يُسمّون جذاما وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين»**.**

وإذا ألقينا نظرة على ما أوردناه من مثال للإنتاج الهلمي باللغة العربية لعلماء كانم برنو؛ يتضح أن هؤلاء العلماء قد أسهموا بقدر الإمكان في التأليف العربي، وتناولوا فيه مواضيع شتّى، مع هذا فمن الأحسن أن ننتبه إلى سؤال قد يطرح نفسه على الدارس المدقّق، وهو أنه إذا كان لعلماء كانم برنو. تراث عربي **([[13]](#footnote-14))**.

**ج. العلوم الشرعية و العقلية:**

من أشهر علماء غرب إفريقيا تأليفا في هذا المجال و خاصة خلال القرن 16م نذكر احمد بابا التنبكتي الذي ترك لنا حوالي 40 كتاب، حيث عبر عنها بقوله: « وألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع منه، والحاشية المسماة منن الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي».

وله كتاب فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخيير المشتري، وأيضا تنبيه الواقف على تحرير نية الحالف ، كما كتب تعليقا على أوائل الألفية سماه النكت الوفية بشرح الألفية، ونيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة في كراسين، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة الولاة، بالإضافة إلى شرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، و "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" اختصر فيه "النيل"، وخمائل الزهر فيما ورد من كيفيات الصلاة على سيد البشر، والدرر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء بالّلهم ، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة، والمنهج المبين في شرح حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من مسودة تأليفه فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير، وتحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات.

و خلال القرن19م ألف الشيخ عثمان دان فوديو في بلاد الهوسا أكثر من مائة كتاب في العلوم الشرعية و الجهاد و السياسة أشهرها كتاب « إحياء السنة و إخماد الفتنة » و كتاب « السنة و إخماد البدعة » الذي تطرق فيه إلى عدة مسائل تتعلق بالشرع و أركان الإسلام من صلاة و صيام و حج و زكاة، و آداب الطعام و ميراث نكاح و بيوع . و كتاب عنونه بـ «وثيقة الإخوان لتبيين دلالة وجوب إتباع السنة و الإجماع » ، كما كتب أخوه عبد الله في الأدب و الفقه أشهرها كتابه ضياء السياسات و فقه النوازل.

1. **() السعدي (عبد الرحمان)، مصدر سابق، ص 20.** [↑](#footnote-ref-2)
2. () السعدي، نفس المصدر، ص 21. [↑](#footnote-ref-3)
3. **() حسن** **الوزان،** المصدر السابق، ص 162. [↑](#footnote-ref-4)
4. () المصدر السابق، ص 676. [↑](#footnote-ref-5)
5. **()الشيخ (أمين عوض الله**)، المرجع السابق، ص 84. [↑](#footnote-ref-6)
6. **()نور الدين شعباني**، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها الخارجية بين القرنين 5و10هجريين، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2012.2013م، ص 279. [↑](#footnote-ref-7)
7. () **باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم**)، المرجع السابق، ص 105 . [↑](#footnote-ref-8)
8. () **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق. [↑](#footnote-ref-9)
9. () **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق [↑](#footnote-ref-10)
10. () بوعزيز ،المصدر السابق، ص 255. [↑](#footnote-ref-11)
11. () زبادية، المرجع السابق، ص 77. [↑](#footnote-ref-12)
12. () نفسه. [↑](#footnote-ref-13)
13. () **ن آدم أديبايو سراج الدين،** نفس االمرجع [↑](#footnote-ref-14)